



الزعامات التقليدية وآثارها السياسية

حكمت السيد صاحب البخاتي 20-06-2017 -

البنية المفهومية للزعامة التقليدية

لازال مفهوم الزعامة التقليدي يشكل عنصرا راسخا في ثقافتنا التقليدية، وهو تعبير متضخم عن الأبوية المهيمنة على مجتمعاتنا، فقد ظلت الأبوية تشكل مسارات حياتنا الاجتماعية والسياسية، وتمددت من الأسرة الى الدولة وكأنها تستعيد حرفيا وتطبيقيا نظرية التطور الأسري الذي بموجبها تفسر نشأة الدولة لاسيما الدولة القديمة لكنها تصطدم بتفسير نشأة الدولة الحديثة.

ان أبرز نتائج الابوية في السياسة هو مفهوم الزعامة التقليدية الذي يعبر عن تطورات سلطة الاب من الاسرة الى القبيلة الى الدولة، لقد كان صعود رؤساء القبائل الكبرى في التاريخ الى دست السلطة السياسية وتحولهم الى ملوك بعد اخضاع القبائل الاخرى يصعد معه مفهوم الابوية السياسية، وفي تلك التصعيدية تاريخيا ينشأ مفهوم الزعامة التقليدية، وفي تطوراتها ينشأ الاستبداد الذي عرفه الغرب بالشكل المقنن وعاشه الشرق بالمضمون القديري، وبذلك فان الدولة الحديثة في محاولة تجاوزها الاستبداد كانت تسعى الى إزاحة العنصر المؤسس للاستبداد ومن ثم تمكين الديمقراطية من إدارة الدولة ومؤسساتها، ونتيجة ذلك فان إزاحة مفهوم الزعامة التقليدية الذي يبني على نوع من الامتيازات الموروثة والمخصصة يكون لصالح مفهوم الادارة الحديثة الذي تحول بموجبه او تنازل بموجبه الملك او الزعيم التقليدي عن سلطته العليا لصالح سلطة الدستور التي صارت تمثل السلطة العليا في الدولة الحديثة وتحول بموجبه الرئيس الجمهوري الى كبير موظفي الدولة الحديثة.

لقد تحولت الزعامة الى الادارة وتحولت الادارة الى المسؤولية امام الشعب الذي يمثل حقوقه ويعين واجباته الدستور، ولذلك لم تعد الدولة الحديثة دولة أبوية أو دولة تقليدية لازالت هي تعبر عن ناظرنا السياسي-الاجتماعي في مفهوم الدولة.

وبالقدر الذي يصطدم فيه مفهوم الزعامة التقليدي في دولنا بتطورات ومفاهيم الدولة الحديثة على المستوى الواعي بالتحولات التي يشهدها العالم، فانه يصطدم ايضا بهذا العالم ويعيش أزمات العلاقة مع دول العالم، وهو يفسر نسبييا طبيعة الحروب المستمرة في منطقتنا التي تعد أكثر مناطق العالم حروبا واكثرها التزاما وعملا بالزعامات التقليدية التي ازاحت المؤسساتية الحديثة عن دولنا ومجتمعاتنا فصرنا نهبا للفوضى وللعنف في ظل غياب النظام المؤسساتي.



والجانب الاخر والملازم لطبيعة الزعامة التقليدية هو الصراع المستمر في داخل البنية الاجتماعية القبلية، وتلك حقيقة ملموسة في التاريخ العشائري والقبلي في المنطقة والذي انتقل وبطبيعته تلك مع انتقال القبيلة او تطورها الى الدولة وانتقال الزعيم القبلي وتطوره الى الزعيم السياسي، فالزعيم القبلي ظل يعيش هواجس الخوف القبلي من الاطاحة به ويحمل السيف والخنجر الذي لا يفارق الشيخ في حله وترحاله دلالة تلك الهواجس من الخوف بالإطاحة به ويتحدث وبفخر التاريخ البدوي في المنطقة عن وقائع الاطاحة بهؤلاء الزعماء القبليين والكييد القبلي لإسقاط شيخ واقامة محله شيخا اخر.

لقد قدر لهؤلاء الزعماء القبليين ان يكونوا رؤساء الدول القوية والثرية في المنطقة، وقوتها نابعة من ولائها القبلي في بداية تطورها ثم تحولت منابع القوة لديها في ثرائها وبترونها وظلت دولها ممالك أو إمارات قبلية، ولقد ظلت مفاهيم القبيلة ومصطلحاتها سائرة لديها في طبيعة التعامل في علاقتهم بالدولة والمجتمع حتى في ظل الانظمة الجمهورية التي تشكلت في المنطقة، وكانت البنية القبلية هي التي تحكم سيرورة الدول فيها. وقد انهارت تلك الانظمة -نظام صدام حسين- تحت وطأة التنافس على الزعامة بعد ان استهواها طموح الزعامة العربية وخاضت بسببه حروبها الاقليمية وهي ما تؤكد على مركزية الحروب في البنية المفهومية للزعامة التقليدية.

ان الدولة تسعى الى تغليب مصالحها وفي حالة نهاونها بمبدأ المصلحة القومية العليا فإنها تجازف بمصيرها وتضع مستقبلها رهن ارادات سياسية خارجية، وغالبا ما تلجأ الدول الحديثة الى ضمان مصالحها بآليات اقتصادية وضمانات دفاعية وضمن تحالفات سياسية وعسكرية متكافئة -مثال حلف الناتو-، ولقد تخلت الدول الكبرى عن نظام الوصاية والانتداب بعد ان اعتبرته او هكذا تمخضت عنه القناعات الحديثة بالمصلحة العليا، بانه وريث فكرة الزعامات التقليدية الذي كان إنموذجها الاخير الإمبراطورية البريطانية.

وانتهجت خطوات هذه السياسة المنظومة الكبيرة للاتحاد السوفيتي الذي اضاف الى تقليدية زعامته حلف وراشو وكان يضح بذلك الى قدرته السياسية عنصر التفكيك الذاتي الذي تحول الى تفكيك أو تفكك تاريخي شهدته الكتلة السوفيتية لتعبر في تجربتها عن عقم وهزال النظرية القديمة في القيادة والزعامة التقليدية، وبدت مصالح روسيا الدولة المحورية في تلك المنظومة هي الأهم من أشكال غير ذات مضامين حقيقية وبراغماتية في الزعامة التقليدية، وبذلك فصلت في الثنائية المشوهة للزعامة التقليدية والمصلحة، لكن دولنا الراسخ فيها النظام القبلي والعقل البدوي وبنية الزعامة التقليدية فيه ظلت تحرص على ادارة مصالحها من خلال تلك البنية التقليدية التي دفعت فواتيرها من مردودات البترول بنسب تفوق ما قد يمكنها من بناء دول ومجتمعات قوية ومتعلمة وحديثة أكثر أمنا واستقرارا..

الزعامات التقليدية تمدد الجغرافيا وحروب التاريخ



لقد تمددت شبكة الزعامة في هذه الدول الى مجال يستوعب الجغرافيا التي تنتمي اليها تلك الدول في ثقافتها وتاريخها، وأعني به المجال الاسلامي العام-السني، فقد لجأت المملكة العربية السعودية الى محاولة تمثل العالم الاسلامي في زعامته وقيادته في ظل الصراع الدائر بين الملك فيصل الملك السعودي والرئيس المصري جمال عبد الناصر في ستينات القرن العشرين حول زعامة العالم العربي الذي أثبتت شخصية الرئيس المصري قدرة سياسية وشخصية على تمثل زعامته، وحينها هتفت له الشعوب العربية وباركت له تلك الزعامة التي لا تخرج عن نطاق ومفهوم الزعامة التقليدية، وكان تفريطه بمصالح الدولة المصرية جزء من متطلبات الاستجابة الى النداء الشخصي الداخلي بتمثل تلك الزعامة التي تسببت اخيرا بخسارة السيادة على الاراضي المصرية.

واما الملك السعودي فانه وللتعويض عن خسارته الزعامة العربية لجأ الى العالم الاسلامي لاسيما غير الناطق بالعربية لاحتوائه في الزعامة السعودية ذات الشكل الديني والمضمون القبلي ودعا الى فكرة التضامن الاسلامي في العام 1964م ثم عقد اول مؤتمر اسلامي في جدة في العام 1970م حضره 17 وزير خارجية من دول اسلامية لتتشكل من خلاله الامانة العامة للمؤتمر الاسلامي الذي كرس زعامة المملكة العربية السعودية للعالم الاسلامي وطبعا بصيغته السنية-السلفية، وفي هذه النقطة تفوق على المؤتمر الاسلامي الذي دعا اليه سابقا الملك السعودي عبد العزيز في العام 1924م في العام الذي أعلن فيه كمال أتاتورك إلغاء الخلافة الاسلامية وتحقق انعقاده في العام 1926م في مكة المكرمة، وبذلك كانت المملكة الناشئة تهيه نفسها للحلول محل الخلافة الاسلامية في الزعامة للعالم الاسلامي، وكان من الممكن لها تماما ان تتبوأ منصب الزعامة الاسلامية في عالم اسلامي اصابه الوهن والضعف وفقد كل مقومات قدرته الحضارية.

وكان المؤتمر الثاني-الذي تحول الى منظمة التعاون الاسلامي لاحقا- يؤسس انشقاكا علائقيا داخليا في العالم الاسلامي الذي يشكل محوره ومركزه العالم العربي الذي آمن أو انخرط في الظاهرة الناصرية في قبالة ظاهرة الرجعية العربية التي كان يطلقها التيار الناصري واليساري على نظام الحكم الملكي في العربية السعودية، وهكذا بدا عالمنا مطحونا ومأسورا بالصراعات على الزعامة التي يغذيها ويديمها مفهوم الزعامة التقليدية في ظل الانظمة الابوية التي تهيمن على عالمنا العربي.

لقد منحت تلك الصراعات أكثر من موطأ قدم في المنطقة العربية للدول المعادية لاسيما الولايات المتحدة واسرائيل، وانقسم العالم العربي في ولاءاته بين حلف الناتو وحلف وارشو، وهنا فقدت الجامعة العربية وظيفتها ولم تعد قادرة على أداء مهامها بعد ان كانت حلم يراود المؤسسين الاوائل للدولة العربية الحديثة، وكان ثمن هذا الانقسام هو خسارة العرب في كل حروبهم مع اسرائيل، حتى اذا انتهى عهد النزاع بين الزعامات العربية القومية والزعامات العربية الدينية ظهرت الثورة الاسلامية في ايران في العام 1979م وقد أطلت



بزعاماتها الدينية في المنطقة التي لا تخرج عن نطاق أو مفهوم الزعامات التقليدية، رافعة شعار تصدير الثورة الذي نظرت اليه العربية السعودية على انه أخطر تهديد يواجهها في زعامة العالم الاسلامي لاسيما وانه جاء هذه المرة بتبرير فقهي ضمن مفهوم ولاية الفقيه، وكانت الولايات المتحدة الاميركية تبحث عن البديل الجيوبوليتيكي لإيران يشغل بال السياسة الاميركية التي خسرت اهم قواعدها الاستراتيجية في المنطقة أعقاب سقوط الشاه في العام 1979م وهنا توافقت المصلحة الأميركية ورؤية الزعامات التقليدية في المنطقة للعالم الاسلامي - السني الذي بدأ منذ هذه اللحظة يصاغ في التعريف به بالهوية السنية بشكل رسمي، وكانت العربية السعودية تخوض رهان هذا التنافس أو الصراع مع ايران على زعامة العالم الاسلامي الذي تحول وبشكل مقصود ومخطط له الى صراع اسلامي - طائفي، وكان تمدد الحركات الوهابية في أقطار ومجتمعات العالم الاسلامي واحد من نتائج هذا الصراع، وفيه نشهد البحث عن اختلافات المذاهب والفرق الاسلامية والتنكيل الفكري بمذاهب المسلمين، ولعل ظهور كتابات إحسان إلهي ظهير رجل الدين الباكستاني والمدعوم من العربية السعودية تعبير عن استفحال الصراع المذهبي والطائفي في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الاسلام الحديث لاسيما وان كتابته ومؤلفاته كانت تركز على الاختلاف المذهبي والطائفي في العالم الاسلامي.

وفي تلك المنافسة السياسية كان الملك السعودي يقترح إحقاق لقب خادم الحرمين الشريفين بأسمائه الملكية بل وفي الصدارة منها، وهو أمر لم يعهده تاريخ الاسرة الملكية السعودية وهو يدخل في المواجهة الاعلامية والشعبية الاسلامية مع ظهور لقب الولي الفقيه في ايران الذي يتضمن فقها الولاية العامة على المسلمين والذي رأته فيه العربية السعودية استفزازا لزعامتها الاسلامية التي رسمتها وبشكل ممنهج في مطلع العقد السابع من القرن العشرين.

لقد كانت نتيجة هذه المنافسة على تبوء الزعامة التقليدية في العالم الاسلامي ثلاثة عقود من الحروب والدمار الذي لحق بالمنطقة، فالحرب العراقية - الايرانية وحرب الخليج الاولى والثانية والحروب الاهلية التي شهدتها دول العراق وسوريا واليمن وهي قد بدأت تقف على اعتاب دول الخليج وبدأت تطرق ابوابها لاسيما في الازمة الخليجية - القطرية الاخيرة التي معها تحولت او تشققت عنها حرب الزعامات داخليا، وهنا بدأ الجسد الخليجي يواجه الحرب الداخلية لتحديد الزعيم المنتصر في النهاية على اشقائه وابناء عمومته كما تحكيها الذاكرة البدوية في تراثها الشفاهي والحكائي لتظل تغذي بنية أفكار ومفهوم الزعامة التقليدية، لكن هذه المرة يكون ترامب هو الحكواتي من خارج التراث البدوي، وهو يسعى الى تغذية النزاعات الخليجية، فهو حينما يحكي عن السعودية ويتهم قطر بالإرهاب، وحينما اخر يرسل قطعاته العسكرية البحرية لإجراء مناورات مع قطعات البحرية القطرية، ويحكي الاملاءات الخليجية التي تستبطن التركيبة النفسية للزعامة التقليدية، فالإملاءات تمنح احساسا فائقا بالنشوة في النفسية البدوية وتنمي الرغبة الداخلية والبدائية في ركوب المخاطر من اجل تصفية المنافسين على الزعامة، وقد شكلت قطر احد أكبر المنافسين الداخليين على هذه



الزعامة الرتبية وغير القابلة للديمومة والبقاء، لكن الذات العربية لازالت أسيرة ذلك الوهج التراثي واللحظة التاريخية التي عبرتها وأقصتها تحولات العالم الحديث.

* باحث في مركز الامام الشيرازي للدراسات والبحوث/2002-2017

<http://shrsc.com>